معاني العقل في الفلسفة العربية

العقل في اللغة العربية هو الحِجْرُ والنُّهى لأنه يحجر الإنسان وينهاه عما لا يليق به ، فنقول عَقَل فلان الشيء أي فهمه وتدبَّره ، وعَقَل الغلامُ أي أدرك ، وعقل فلان بعد الصِّبا أي عرف الخطأ الذى كان عليه . وقد سمي بذلك تشبيهاً بعقل الناقة ، لأنه يمنع صاحبه من العدول عن سواء السبيل ، كما يمنع العِقال الناقة من الشرود . وهذا المعنى الأخير مشابه لقولنا عَقَل الدواء بطنه أي أمسكه ، وعقلت المرأةُ شعرها أي مَشَطته ، وعقل القتيلَ أي أدَّى ديته ، وعقل الوعلُ أي صَعِد وامتنع في الجبل العالي . وجميع هذه المعاني تشترك كلها في أمرٍ واحد وهو أنَّ العقل لجام أو رباط يحْجُر عن ركوب المناهي ، ويمنع من الاقدام على الشهوات والانقياد للأهواء .

والجمهور يطلق العقل على ثلاثة أوجه (الغزالي ، معيار العلم) (الأول) يرجع الى وَقار الإنسان وهيئته ، ويكون حده أنه هيئة محمودة للانسان في كلامه واختياره وحركاته وسكناته . (والثاني) يراد به مايكتسبه الانسان بالتجارب من الأحكام الكلية فيكون حده أنه معانٍ مجتمعة في الذهن تكون مقدمات تستنبط بها الأغراض والمصالح ، (والثالث) يراد به صحة الفطرة الأولى في الانسان (ابن سينا ، رسالة الحدود) فيكون حده أنه قوة تدرك صفات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ونقصانها . فاذا قالوا في الانسان إنه عاقل عَنَوا بذلك أن عقله يعقله عما لا ينبغي فعله ، فلا يسمونه عاقلاً حتى يكون خيِّراً ديناً يعرف ما ينبغي أن يؤثر من خير أو يجتنب من شر ، لأن الخير والدين عندهم من موجبات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

العقل . فأما الشرير الذي يستعمل فكره ورويته في فعل الشر فلا يسمونه عاقلاً ، وإنما يسمونه داهياً وماكراً . ذلك لأن الرجل في نظرهم لا يكون مع جودة رويته تام العقل الا اذا اجتمع له العلم والعمل والأدب ، فاذا علم ولم يعمل ، أو عمل بغير أدب ، أو عمل بأدب ولم يعلم ، لم يكن عاقلاً ، حتى لقد فسروا الآية الكريمة : «أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها» بقولهم ان العقل الذي دلت عليه هذه الآية هو العلم ، فقال فخر الدين الرازي في كتاب محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين (ص ٧٢) ، إنه من المحال أن يوجد عاقل لا يعلم شيئاً البتة ، أو عالم بجميع الأشياء ولا يكون عاقلاً .

ولكن المتكلمين فرقوا بين العقل والعلم فقالوا العقل يقال على التصورات والتصديقات الحاصلة للنفس بالفطرة ، والعلم يقال على ما يحصل للنفس بالاكتساب ، ففرقوا على هذه الصورة بين المكتسب والفطري ، فكل موضع ذمّ الله الكفار فيه بعدم العقل فاشارة الى المعنى الثاني ، وكل موضع رفع الله فيه التكليف عن العبد لعدم العقل فاشارة الى الأول ، ولذلك قال القاضي أبو بكر الباقلاني في حد العقل إنه علم ضروري بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات ووجوب الواجبات . وقال المحاسبي من أهل السنة : هو غريزة يتوصل بها الى المعرفة .

وقال ابو الحسن الأشعري : «العقل علم مخصوص» لا فرق بينه وبين العلم الا بالعموم والخصوص ، وزادت المعتزلة في العلوم التي يشتمل عليها العقل العلمَ بحسن الحسن وقبح القبيح ، لأنهم يعدّون ذلك في البديهيات . وجملة القول ان العقل يطلق عند هؤلاء جميعاً على القوة المتهيئة لقبول العلم تارةً ، أو على العلم الذي يستفيده الانسان من استعمال تلك القوة تارةً أخرى ، وهو نور في القلب يعرف الحق من الباطل والخير من الشر . وقد قيل العقل والنفس والذهن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عند النظار شيء واحد ، إلا أن النفس سميت نفساً لكونها متصرفة ، وذهناً لكونها مستعدة للإدراك ، وعقلاً لكونها مدركة .

وليس في هذه المعاني التي يطلق عليها جمهور الناس والمتكلمون اسم العقل تحديد دقيق . فاذا شئت أن تتلمس الدقة والتحديد وجب عليك أن تستقري معنى العقل في كتب الفلاسفة كرسالة الكندي في ماهية العقل والإبانة عنه ، ورسالته في حدود الأشياء ورسومها ، ومقالة الفارابي في معاني العقل ، ورسالة الحدود لابن سينا ، وكتاب التعريفات للجرجاني ، وكليات أبي البقاء وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي . ففي هذه الكتب وفي غيرها من كتب الكندي والفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد تعريفات واضحة لمعاني العقل وتحديد دقيق لأقسامه . وها نحن أولاء نذكر هذه المعاني مع الاشارة الى النصوص الأصلية التي وردت فيها .

١ — ان أول هذه المعاني هو القولُ بأن العقل « جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها » (رسالة حدود الأشياء ورسومها للكندي ، مادة عقل) . وهذا الجوهر ليس « مركباً من قوة قابلة للفساد » (ابن سينا ، اشارات ١٧٨) ، بل هو « مجرد عن المادة في ذاته ، مقارن لها في فعله » (تعريفات الجرجاني) . أو بعبارة أخرى « هو جوهر مجرد غير متعلق بالجسم تعلق التدبير والتصرف ، وان كان متعلقاً بالجسم على سبيل التأثير » (كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي) . وهذا القول بجوهرية العقل مع نفي العرضية عنه موجود في أكثر كتب الفلاسفة . فالفارابي عندما يتحدث عن القوى التي تدرك المعقولات يقول « انها جوهر بسيط .. مقارن للمادة ، يبقى بعد موت البدن . ـ وهو جوهر أحدي وهو الانسان على الحقيقة » (الفارابي ، عيون المسائل ص ٦٤) . وابن سينا لا يتحدث عن القوة العاقلة في كتاب الاشارات إلا باسم الجوهر ، كما انه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يسمي الجوهر المتبرئ من المواد من كل جهة عقلاً (الشفاء ٢ : ٤٠٥) . « وهو النفس الناطقة التي يشير اليها كل أحد بقوله أنا » (تعريفات الجرجاني) . وجميع أهل السنة يعتقدون ان العقل والروح من الأعيان وليسا بعرضين كما ظنته المعتزلة . والفرق بين الرأيين لا يخفى على المحقق لأن الذين يقولون بأن العقل جوهر يلزمهم القول بثبوت حقيقته ، أما الذين يقولون بأنه عَرَض فيلزمهم القول بتبدله وتغيره .

٢ — والمعنى الثاني للعقل هو المعنى الذي أشار اليه الفارابي في مقالته ، إذ قال : « إنه قوة النفس التي بها يحصّل الانسان اليقين بالمقدمات الكلية الصادقة الضرورية لا عن قياس أصلاً ، ولا عن فكر ، بل بالفطرة والطبع ، أو من صباه ، ومن حيث لا يشعر من أين حصلت ، وكيف حصلت » (الفارابي ، مقالته في معاني العقل ، ص ٤٠) . وهو المعنى الذي أشار اليه الرازي بقوله : « هو غريزة يلزمها العلم بالأمور الكلية والبديهية » (فخر الدين الرازي ، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين ، ص ٧٢) ، أو المعنى الذي أشار اليه المتكلمون بقولهم هو العلم بالمدركات الضرورية . وهذه المدركات نوعان : الأول ما وقع عن إدراك الحواس . والثاني ما كان أصله في النفس ، كالعلم بأن النفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، وأن الكل أعظم من الجزء ، وأن الشيئين المساويين لشيء ثالث متساويان . وهذا النوع من العلم لا يجوز أن ينتفي عن العاقل مع سلامة حاله ، فاذا كان عالماً بالمدركات الضرورية كلها كان كامل العقل . وهم يسمون هذا العقل بالعقل العلمي أو العقل النظري ، ويصفونه بأنه قوة للنفس بها تستعد للعلوم والادراكات (كليات أبي البقاء) ، وانه بالنسبة الى النفس كالملك بالنسبة الى المدينة ، وانه هو الذي يميز الصور المحسوسة ويجزئها ، ويأخذ كل واحد من المعاني مفرقاً ، ويرتب الأخص والأعم والذاتي والعرضي ، وأنه نور في القلب ينتهي اليه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

راك الحواس ، وأنه كالشمس الظاهرة في الملكوت . وهذا النور هو الذي شار اليه الغزالي عند خروجه من الشك وعودته الى الصحة والاعتدال ، فقال ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر ، ذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف » (المنقذ من الضلال) ، وهو المراد من قول رسول عليه السلام : « ان الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ، ثم رشّ عليهم من نوره » .

٣ — والمعنى الثالث للعقل هو القول بأنه قوة نحصّل بهـا اليقين بمقدمات لأمور الارادية والأفعال الخلقية ، وتسمى المقدمات التي تحصل للانسان بهذا وجه مبادئ العقل ، ونسبتها الى الأمور الارادية العملية كنسبة المقدمات كلية الضرورية الى العلوم النظرية . ولما كان هذا العقل يستنبط من هذه بادئ ما يجب على الإنسان فعله أطلق الفلاسفة عليه اسم العقل العملي (الفارابي ، يون المسائل ص ٦٤) . وهو يزداد بازدياد العمر ، فاذا بلغ نهايتـه صار احبه ذا رأي . ويتفاضل الناس في ذلك تفاضلاً متفاوتاً . حتى اذا جمع لانسان الى كثرة استعمال هذا العقل إصابة الفكرة ، وحسن الفطنة ، بلغ ن الكمال درجة ليس وراءها زيادة لمستزيد . ولقد خلط المتكلمون بين هذا لعقل العملي والعقل العلمي الذي قدمنا ذكره فنسبوا الى العقل العلمي مقدمات أخوذةً من مبادئ الرأي المشترك أي من مبادئ العقل العملي (الفارابي ، قالة في معاني العقل ، ص ٤٢) مع ان العقلين مختلفان أحدهما ضروري للعلوم لنظرية ، والآخر ضروري للحكمة العملية . ولكنهما بالرغم من اختلافهما لا يدلان على انقسام النفس ، بل النفس الانسانية واحدة بالرغم من اختلاف جوهها . وأنت اذا تبينت أيضاً أقسام الحكمة عند الفلاسفة علمت أن الغاية من الحكمة النظرية هي « حصول الاعتقاد اليقيني بحال الموجودات التي لا يتعلق وجودها بفعل الانسان » (ابن سينا ، رسالة في أقسام العلوم العقلية) ، وان الغاية من الحكمة العملية ليست حصول اعتقاد يقيني بالموجودات وإنما هي حصول

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

رأي لأجل عمل . « فغاية النظري هي الحق ، وغاية العملي هي الخير » (ابن سينا ، المصدر نفسه) .

ومن النظار من يقسم العقلَ قسمين ، فغريزي ومكتسب ، ومطبوع ومسموع . فالغريزي هو العقل الحقيقي علمياً كان أو عملياً . والكسبي نتيجة العقل الغريزي . وهو ينمو بالاستعمال وينقص بالاهمال ، فاذا انضم هذا العقل الكسبي الى العقل الغريزي ، واتسعت المدارك بطول التجارب ، ومرور الزمان ، وكثرة الاختبار أصبح الانسان كاملاً .

٤ — والمعنى الرابع للعقل هو المعنى الذي ذكره الفلاسفة في كلامهم عن طريق اكتساب النفس للمعرفة ، فانهم بينوا أن الحس لا يجرد الصورة عن المادة ، ولا عن لواحق المادة ، بل يخلطها باللواحق الحسية من كم وكيف وأين ووضع وغير ذلك . وكذلك الخيال والوهم ، وان كانا يبرئان الصورة المنزوعة عن المادة تبرئة أشد ، فانهما لا يستطيعان تجريدها عن لواحق المادة تجريداً تاماً . أما القوة التي تأخذ الصور أخذاً مجرداً عن المادة ولواحقها من كل وجه وتفرزها من كل كم وكيف وأين ووضع مادي فهي العقل .

ولهذه القوة النظرية مراتب مختلفة يطلق على كل منها اسم العقل : كالعقل الهيولاني (Intelligence materielle) والعقل بالملكة (Intelligence habitude) والعقل بالفعل (Intelligence en acte) ، والعقل المستفاد (Intelligence acquise) . وها نحن أولاء نبيّن صفة هذه العقول المختلفة بالاعتماد على أقوال ابن سينا :

يقول ابن سينا ان نسبة القوة النظرية الى الصور المحسوسة تكون على وجهين : فهي اما أن تكون قابلة لها بالقوة ، واما أن تكون قابلة لها بالفعل .

فاذا كانت قابلة لها بالقوة اختلفت نسبتها اليها بحسب درجات القوة . وهي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثلاث : الدرجة الأولى هي القوة المطلقة ، أو الاستعداد المطلق الذي لم يخرج منه الى الفعل شيء . وهي قوة هيولانية كقوة الطفل على الكتابة ، فهو لا يعرف الكتابة ولا يقدر عليها ، ولكن فيه استعداداً مطلقاً لها .

والدرجة الثانية هي القوة الممكنة ، وهي التي حصل معها للطفل استعداد يمكنه من اكتساب الفعل بلا واسطة ، كقوة الطفل على الكتابة بعد أن عرف القلم والدواة وتعلم بسائط الحروف . وهذا الاستعداد الممكن هو حصول المعقولات الأولى للنفس مثل اعتقادنا أنّ الكل أعظم من الجزء ، وأن الأشياء المساوية لشيء واحد متساوية . وهذه المعقولات الأولى هي التي تنقلنا الى المعقولات الثانية .

والدرجة الثالثة هي القوة الكاملة التي لا ينقصها للانتقال الى الفعل شيء ، كقوة الكاتب المستكمل لصناعة الكتابة اذا كان لا يكتب . فهو قد تمّ له الاستعداد للكتابة بالآلة ، وحدث فيه مع الآلة أيضاً كمال الاستعداد ، فهو يفعل متى شاء بلا حاجة الى اكتساب جديد .

فاذا كانت نسبة القوة النظرية الى الصور نسبة القوة المطلقة والاستعداد المحض سميت عقلاً هيولانياً . وهذا العقل الهيولاني موجود لكل شخص من النوع الانساني . وانما نسب الى الهيولى لأن النفس في هذه المرتبة تشبه الهيولى الخالية في حد ذاتها من الصور .

واذا كانت نسبة القوة النظرية الى الصور نسبة القوة الممكنة ، سميت عقلاً بالملكة ، وهذا العقل ليس سوى حصول المعقولات الأولى في النفس ، فهو إذن علم بالضروريات واستعداد النفس بذلك لاكتساب النظريات . ويجوز أن يسمى العقل بالملكة عقلاً بالفعل بالقياس الى العقل الهيولاني .

واذا كانت نسبة القوة النظرية الى الصور تشبه القوة الكاملة سميت عقلاً بالفعل ، وهو أن تصير النظريات مخزونة عند القوة العاقلة بتكرار الاكتساب بحيث يحصل لها ملكة الاستحضار متى شاءت من غير تشجم اكتساب جديد . الاّ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أنها لا تطالها ولا تشاهدها ولا ترجع اليها بالفعل ، ويجوز أن يسمى هذا العقل عقلاً بالقوة بالنسبة الى ما بعده .

واذا كانت نسبة القوة النظرية الى الصور نسبة الفعل المطلق سميت عقلاً مستفاداً وهو أن تكون الصور المعقولة حاضرة فيه لا تغيب عنه ، وهو يطالعها ويعقلها بالفعل ويعقل أنه يعقلها .

تلك هي مراتب العقل الانساني بالقياس الى قدرته على تجريد الصور من لواحقها المادية ، أدناها العقل الهيولاني وأعلاها العقل المستفاد . ولكن العقل بالقوة كما يقول ابن سينا لا يخرج الى الفعل بذاته ، بل يخرج الى الفعل بتأثير عقل آخر هو دائماً بالفعل . لذلك كان من الضروري في نظره أن نقول بوجود عقل مفارق للعقل الانساني يخرجه من القوة الى الفعل ، وهذا الفعل هو العقل الفعّال .

وهذه العقول التي ذكرها ابن سينا ، فبين كيف تتفاوت في قدرتها على انتزاع الصور عن موادها كان الفارابي والكندي قد أشارا اليها قبله . ولكنهما لم يبينا مراتبها على الوجه الذي نجده في كتاب النفس من الشفاء .

فالكندي لم يذكر لنا في رسالة العقل إلا أربعة عقول هي العقل الأول ، والعقل بالقوة ، والعقل بالفعل ، والعقل الذي يسميه بالعقل الظاهر . قال : « العقل على أنواع أربعة : الأول منها العقل الذي بالفعل أبداً ، والثاني العقل الذي بالقوة وهو للنفس ، والثالث العقل الذي خرج في النفس من القوة الى الفعل ، والرابع العقل الذي نسميه الظاهر » ، فالعقل الأول عنده هو عقل بالفعل أبداً . وهو علة لجميع المعقولات والعقول الثواني . وهو الذي يخرج النفس من حالة كونها عاقلة بالقوة الى حالة كونها عاقلة بالفعل . وأما العقل بالقوة فهو حالة النفس التي ليس فيها شيء من الصور . وأما العقل بالفعل فهو حالة النفس التي اتحدت بالصور العقلية وخرجت بواسطة المعقولات من القوة الى الفعل ، والعقل بالفعل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في نظره قنية للنفس متى شاءت استعملته ، وهو في الوقت نفسه عقل مستفاد من العقل الأول . وللنفس أخيراً أن تستعمل هذا العقل الذي اقتنته وان تظهره لغيرها أو في غيرها متى شاءت . وهذه المرتبة الأخيرة هي مرتبة العقل الظاهر .

والفارابي يقول أيضاً في مقالة العقل ان اسم العقل الذي يذكره آرسطو في كتاب النفس يقال على أربعة أنحاء : عقل بالقوة ، وعقل بالفعل ، وعقل مستفاد ، وعقل فعال . وليس في هذه الأنحاء الأربعة التي يذكرها الفارابي ما يجعل مذهبه مختلفاً كل الاختلاف عن مذهب الكندي ، لأن كلاً من العقل بالقوة والعقل بالفعل عند الفيلسوفين واحد . أما العقل المستفاد فهو عند الفارابي إدراك العقل لذاته من حيث هو صورة مجردة أفاض عليها العقل الفعال معقولات جديدة بريئة بطبيعتها من كل مادة . وهذا العقل كما حددناه لم يشر اليه آرسطو ، وانما هو من مبتكرات الفارابي نفسه . وأما العقل الفعال فهو نوع من العقل المستفاد ، ولكن صور الموجودات لم تزل ولا تزال فيه على غير الترتيب الذي هي موجودة عليه في العقل الذي بالفعل . وليس بين هذا العقل الفعّال والعقل الأول الذى أشار اليه الكندي إلا فرق واحد ، وهو ان العقل الفعّال عند الفارابي هو عقل الفلك الأدنى ، أما العقل الأول عند الكندي فيشبه أن يكون العقل الإلهي أو الإله نفسه .

ومن قارن اقسام العقل التي ذكرها فلاسفة العرب بالأقسام التي ذكرها الاسكندر الافروديسي في رسالة العقل والمعقول لم يجد بينها كبير اختلاف . لأن الاسكندر يقسم العقل ثلاثة أقسام هي العقل الهيولاني ، والعقل بالملكة ، والعقل الفاعل . وكل عقل من هذه الثلاثة مطابق لمرتبة من مراتب العقل عند الكندي والفارابي . فالعقل الهيولاني مطابق للعقل بالقوة لأن كلية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(materia) مادة وكلمة (potentia) قوة مترادفتان . والعقل بالملكة مطابق للعقل بالفعل ، والعقل الفاعل مقابل للعقل الأول عند الكندي وللعقل الفعال عند الفارابي وابن سينا . ولا يختلف الكندي والفارابي عن الاسكندر الافروديسي الا بالعقل الرابع الذي يسميه فيلسوف العرب بالعقل الظاهر ، ويسميه المعلم الثاني بالعقل المستفاد .

ولأبي حيان التوحيدي في كتاب المقابسات تقسيم ثلاثي للعقل منسوب الى ابي سليمان يدل على أنه نحا في ذلك نحو الاسكندر . قال : « اسم العقل يدل على معان ، وتنقسم تلك المعاني الى أقسام بحسب ما ينقسم كل ذي عقل ، وذلك له ابتداء وانتهاء . واحدها وهو بمعنى الابتداء بالطبع هو العقل الفعال . والثاني بحسب الانتهاء وهو العقل الانساني ، ويسمى هيولانياً ، وهو في نسبة المفعول ، والثالث بحسب معنى الوسط وهو العقل المستفاد . وهو في نسبة الفعل . والعقل الانساني الذي بمنزلة المفعول هو في حيز القوة التي تحتاج أن تخرج الى الفعل . . . . ولما كان الذي بالقوة يحتاج الى شيء موجود بالفعل يخرجه الى الفعل ، كان ذلك الشيء هو العقل الفعال » . (مقابسات ص ٢٨٩) . وهذا كلام واضح يدل على أن أبا حيان لم يتقيد بالتقسيم الرباعي الذي جاء به الكندي والفارابي قبله .

ومن نظر في تطور مشكلة العقل من آرسطو الى الاسكندر ، ثم من الكندي الى الفارابي وابن سينا لم يجد فيها إلا سلسلة من الآراء التي يكمل بعضها بعضاً . واليك الآن جدولاً يبين تطور أقسام العقل من الاسكندر الى ابن سينا .

الاسكندر الافرودسي	الكندي	الفارابي	ابن سينا
العقل الهيولاني	العقل بالقوة	العقل بالقوة	العقل الهيولاني
العقل بالملكة	العقل بالفعل	العقل بالفعل	العقل بالملكة
—	—	—	العقل بالفعل
—	العقل الظاهر	العقل المستفاد	العقل المستفاد
العقل الفاعل	العقل الأول	العقل الفعال	العقل الفعال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٥ — العقل المفارق : قلنا عند الكلام عن العقل الانساني ان النفس في مبدأ الفطرة خالية من جميع المعقولات . ولذلك سميت وهي في تلك الحالة بالعقل الهيولاني ، أو العقل بالقوة فاذا حصلت لها صور الأوليات الكلية سميت عقلاً بالملكة ، ثم ترتقي بعد ذلك فتصبح عقلاً بالفعل ثم عقلاً مستفاداً ؛ والشيء الذي يجعل تلك الذات التي كانت عقلاً بالقوة عقلاً بالفعل هو العقل الفعال . وهو أحد العقول المفارقة التي اشتملت عليها نظرية الفيض . وهذه النظرية التي اقتبسها الفارابي وابن سينا من الفلسفة الأفلاطونية الحديثة تقول بصدور العقول المفارقة بعضها عن بعض على نظام يجعل العقل الأول أعلاها والعقل الفعال آخرها . فالإله نفسه عقل محض يعقل ذاته ، ثم يصدر عنه لمجرد عقل لذاته عقل أول واحد بالعدد ، وهذا العقل الأول يعقل الإله ويعقل أيضاً ذاته ، فيفيض عنه عقل ثانٍ . ثم يتلوه عقل ثالث ورابع ، ولا يزال هذا الفيض يبدع عقولاً متتالية حتى ينتهي الإبداع الى العقل العاشر وهو العقل الفعال ، أي عقل فلك القمر المدبرُ لعالم الكون والفساد . وهكذا تؤلف العقول السماوية سلسلةً محكمة الحلقات يصدر عن كل عقل منها في مذهب ابن سينا ثلاثة أشياء عقل ونفس وجسم ، وتسمى العقول التسعة الأولى في مذهب الفارابي ملائكة السماء ، ويسمى العقل الفعال بروح القُدس أو الروح الأمين ، ويسمى في لسان أهل الشرع بجبريل ، وهو الذى يصل العالم العلوي بالعالم السفلي . وكذلك ابن سينا فهو يعرّف الملك في رسالة الحدود بقوله : « هو جوهر بسيط ذو حياةٍ ونطقٍ عقلي غيرُ مائت ، وهو واسطة بين الباري عزَّ وجل والأجسام الأرضيه فمنه عقلي ، ومنه نفسي ، ومنه جسماني » . وللملائكة عنده ثلاث درجات أولها درجة الملائكة الروحانية المجردة التي تسمى عقولاً . وثانيها مرتبة الملائكة الروحانية التي تسمى نفوساً ، وهي الملائكة العملية ، وآخرها مرتبة ملائكة الأجرام السماوية . وما قال ابن سينا ان العقول المجردة ملائكة الا تستراً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالاسلام ، مع أن الملائكة في الاسلام ليست عقولاً مجردة ، وإنما هي أجسام لطيفة نورانية قادرة على أفعال شاقة متشكلة بأشكال مختلفة ، ولهم أجنحة وحواس (التهانوي) . وهو يرى أيضاً أن عدد العقول المفارقة بعد المبدأ الأول مساوٍ لعدد الحركات السماوية ، وان حركات الأفلاك شبيهة بحركات النفوس الانسانية . فكما ان للفلك نفساً تحركه ، فكذلك له عقل يدبره ، قال : « وأنت تعلم ان ههنا عقولاً ونفوساً مفارقة كثيرة ، ولكن العقل ليس محركاً قريباً للفلك ، وانما هو محرك له على سبيل التشويق » . قال : « وأنت تعلم أن العقل المجرد لا يكون مبدأً قريباً لحركة ... وانه اذا كان مبدأً لحركة فيجب أن يكون مبدأً آمراً مثلاً أو متشوّقاً » . (نجاة ٣٩٣ — ٣٩٤) . وهو يصف العقل الأول الصادر عن واجب الوجود بأنه عقل محض ، لأنه صورة لا في مادة وهو أول العقول المفارقة ، وهو الملك الإلهي الموسوم بالعقل الكلي .

وما يسميه ابن سينا بالعقل الأول يسميه صاحب الرسالة الجامعة تارة بالعقل الأول ، وتارة بالعقل الفعال ، ويعرفه بأنه أول مبدع أبدعه الباري سبحانه ، وهو جوهر بسيط روحاني محيط بالأشياء كلها (الرسالة الجامعة ، جزء ١ ، ص ٥٦ ، ٣٠٤) ويقابله في العالم السفلي عقل جزئي هو قوة من قوى النفس الانسانية التي فعلها الفكر والروية والنطق والصناعة ، وترتيب الموجودات في الرسالة الجامعة شبيه بترتيب الأعداد ، فالله تعالى هو الواحد ، والعقل هو الاثنان والنفس هي الثلاثة الخ . وهذه تعطف على الطبيعة لترفعها الى منزلتها كما يعطف العقل على النفس ليرفعها اليه ويبلغها درجته .

وفي لسان الصوفية العقل الأول هو مرتبة الوحدة . وفرقوا بين العقل الأول ، وعقل الكل ، وعقل المعاش ، فقالوا العقل الأول هو محل صدور الوحي القدسي ، وأول تفصيل الاجمال الإلهي ، وعقل الكل هو القسطاس المستقيم وميزان العدل للأمر الفصلي ، وعقل المعاش هو الموزون بالقانون الفكري ، فلا يدرك إلا بآلة الفكر ، ولا يحكم إلا بكيفية العادة (التهانوي) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أما ابن رشد فانه بين في تفسير ما بعد الطبيعة أن العقل الفعال هو كالصورة في العقل الهيولاني ، وان هذا العقل الهيولاني كائن فاسد ، وأن العقل الذي بالملكة فيه جزء كائن وجزء فاسد ، وان الفاسد هو فعله ، وأما هو في ذاته فليس بفاسد ، وانه داخل علينا من خارج ، وان العقل الذي يبقى ليس العقل الذي هو قوة للنفس أو جزء منها ، وانما هو العقل المستفاد أو العقل المكتسب .

* * *

ينتج من كل ما تقدم أن للعقل في الفلسفة العربية معنيين أساسيين أحدهما أن العقل قوة من قوى النفس الانسانية تدرك المعقولات ، وتستنبط منها بالقياس حقائق جديدة ، والثاني أن العقل جوهر مجرد عن المادة مفارق للأمور الحسية والجسمانية .

فاذا اعتبرناه قوةً من قوى النفس الانسانية دل على العلم بالمبادئ الكلية الضرورية ، أو على العلم بمبادئ الأفعال الخلقية . ويسمى العلم بالمبادئ الضرورية عقلاً نظرياً . أما العلم بمبادئ الأفعال الخلقية فيسمى عقلاً عملياً . وتختلف مراتب القوة النظرية في الانسان باختلاف درجة قبوله واستعداده للفعل ، فاذا كانت نسبة العقل الى قبول الصور العقلية نسبة الاستعداد المحض أو القوة المحضة الخالية من كل فعل كان العقل هيولانياً ، واذا حصلت المعقولات الأولى في النفس وحصل معها استعداد لاكتساب النظريات سمي العقل عقلاً بالملكة ، واذا صارت النظريات مخزونة عند القوة العاقلة بتكرار الاكتساب بحيث تستطيع استحضارها متى شاءت من غير تجشم اكتساب جديد سميت القوة العاقلة عقلاً بالفعل . واذا حضرت النظريات عند العقل بحيث يشاهدها دائماً سمي العقل عقلاً مستفاداً . وأما العقول المجردة فأعلاها العقل الأول أو العقل الكلي ، وأدناها العقل الفعال . وهي كلها جواهر روحانية مفارقة .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واذا كان من عادة العلماء أن يعرفوا الأشياء بأضدادها فانه من السهل علينا أن نورد هنا بعض أضداد العقل :

— فالعقل مضاد للحس ، لأن الحس يدرك الأمور الجزئية . أما العقل فيدرك الأمور الكلية .

— وهو مضاد للهوى ، لأن الهوى كما يقولون عن الخير صاد ، وللعقل مضاد . ومن أحسن الأمثلة الدالة على هذا التضاد بين العقل والهوى ما جاء في كتاب الهوامل والشوامل لأبي حيان التوحيدي ومسكويه . « قال أبو حيان : لمَ قيل الرأي نائم والهوى يقظان ، ولذلك غلب الهوى الرأي .. أليس الرأي من حزب العقل وأوليائه ، فكيف غلب مع علو مكانه وشرف موضعه وما معنى قول الأوائل : العقل صديق مقطوع والهوى عدو متبوع . ما سبب هذه الصداقة مع هذا العقوق ، وما سبب تلك العداوة مع تلك المتابعة » . فأجابه أبو علي مسكويه : « هذا كلام خرج في معرض فصاحة وخطابة ، فأما معناه فهو أن الهوى فينا قوي جداً ، والرأي ضعيف ، وسبب ذلك أنا معشر الناس طبيعيون وجزء الطبيعة فينا أغلب من جزء العقل ، لأنا في عالم الطبيعة ، والعقل غريب عندنا ، ضعيف الأثر فينا ولذلك نكيلُ عند النظر في المعقولات ، ولا نكيلُ عند النظر في الطبيعيات ذلك الكلال ، والعقل وان كان في نفسه شريفاً عالي الرتبة فان أثره عندنا يسير ، والطبيعة وان كانت بالاضافة الى العقل منحطة الرتبة فانها قوية فينا ، لأنا في عالمها ، ونحن أجزاء منها ، ومركبون من عناصرها ، وفينا قواها أجمع » .

— فالعقل مضاد للطبيعة اذن كما هو مضاد للهوى ، وقد قيل ان الانسان يساق بالعقل الى الحياة وبالطبيعة الى الموت .

— وهو أخيراً مضاد للجهل ، لأنه دعامة العمل الصالح وأساس الفضيلة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وينبوع الآداب ، فاذا تمَّ في الانسان خرج به الى حد الكمال ، كما قال صالح بن عبد القدوس :

إذا تمَّ عقل المرء تمت أموره وتمت أمانيه وتم بناؤه

☆ ☆ ☆

وهذا التضاد بين العقل من جهة وبين الحس والهوى والطبيعة والجهل من جهة أخرى يدل على شرف العقل وعلو منزلته . فقد قال عليه السلام : «أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال وعزتي وجلالي ، ما خلقت خلقاً أكرم عليَّ منك ، بك آخذ ، وبك أثيب ، وبك أعاقب» . وقد قال الفلاسفة : ان سعادة الدنيا والآخرة لا تنال إلا بالعقل وان النفس لا تبلغ الكمال الا اذا اكتملت قواها العقلية ، وعاشت حياة عقلية مجردة من جميع العلائق . واذا كانت قد علقت بها بعض العادات حين اتصالها بالبدن فجعلتها غير مستحقة لمثل تلك الحياة ، فذلك يعني أنها شريرة جاهلة لم تكتسب كمالها العقلي ، وهي في الحياة الدنيا ، وانها تستحق الألم الروحي الدائم جزاءً لما اقترفته . أما النفوس الخيرة التي اكتسبت كمالها العقلي فانها تتمتع باللذات الأبدية ، وتتذوق الخير والجمال . فالسعادة الحقيقية مقصورة إذن على النفوس الانسانية التي فازت بالكمالات العقلية . وكيف لا يكون العقل أشرف الأشياء ، وبه كما يقولون صار الإنسان خليفة الله ، وبه تقرب اليه ، وبه تم دينه . ولذلك قال عليه السلام : لا دين لمن لا عقل له . وقال لا يعجبكم اسلام امرئ حتى تعرفوا عقله . ولهذا قيل من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الخير عليه . وناهيك بالعقل شرفاً أن الله تعالى شبهه بالنور فقال : «الله نور السموات والأرض» . وان الرسول قال لعلي رضي الله عنه : اذا تقرب الناس خالقهم بأبواب البر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فتقرب أنت اليه بعقلك ، فبقدر عقل المرء تكون عبادته لربه ، ولو كان الفجار يسمعون ويعقلون ما كانوا في أصحاب السعير ، وقد فسروا قول أحد الظرفاء « أكثر أهل الجنة البله » بقولهم أنه يعني بالبلاهة هنا البلاهة في أمور الدنيا لا في أمور الآخرة ، وفسروا أيضاً قول أبي العلاء :

اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر ديّنٌ لا عقل له

بقولهم انه يتكلم هنا عن الأمر الواقع لا عما يجب أن يكون . ولذلك قال الحسن البصري : أدركنا أقواماً لو رأيتموهم لقلتم مجانين ، ولو رأوكم لقالوا شياطين .

وفي اللغة العربية الحديثة نقول هذا رجل عاقل ونعني بذلك الرجل الهادئ المتزن على خلاف الرجل السريع الخاطر ، الحسن البديهة الذي يشتعل فطنةً وذكاءً ، وهذا الهادئ المتزن المعقولُ فكرُه كعقال الناقة ليس محموداً في نظر العوام ، وإنما هو جدير بالرحمة لعجزه عن بلوغ مآربه وتقصيره في إدراك مصالحه وأغراضه .

جميل صليبا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net